الآل والأصحاب

في كتاب ربّ الأرباب

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧١].

أما بعد:

فإن حكمة الله تعالى ذكره اقتضت ألا يترك البشر هملاً، ولا يخلقهم سدىً، بل خلقوا لحكمة بالغة، هي الغاية من خلقهم وسر وجودهم، بينها سبحانه في كتابه بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل ذلك أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وقد ختم رسله إلى البشرية جمعاء بمحمد ﷺ، وجعل الكتاب الذي أنزل عليه ناسخاً لجميع الكتب ومهيمناً عليها، وأمره أن يُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم؛ فلا يمكن معرفة مراد الله في كتابه على الوجه الأكمل إلا بمعرفة سنة نبيه ﷺ، فهي شارحة له ومبينة لمجمله، ولابد لمن أراد أن يعرف السنة أن يعرف حملتها، وأول من حملها هم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فهم من بلغ الدين إلى الناس، ومنهم تعلمت البشرية جمعاء بعد وفاة النبي ﷺ، وقد اختارهم الله وارتضاهم

لصحبة نبيه وتبليغ دينه والدفاع عنه؛ فهم خير هذه الأمة على الإطلاق، بل خير من وطئ الحصى بعد الأنبياء والمرسلين، وهم أولياء الله وأحبابه، وجنده وأنصاره، وعدهم بالمغفرة والجنة، وبشرهم بالرضوان وهم يدبون على الأرض؛ إكراماً لهم، وهم أعدل وأخير وأزكى أهل الأرض؛ لأن الله زكَّاهم وعدَّلهم في كتابه، وكذلك رسوله ﷺ زكاهم في سنته، وكفى بذلك شرفاً!

وكما أنهم قد عرفوا لرسول الله ﷺ حقه فإنهم أيضاً عرفوا لقرابته حقهم وفضلهم؛ فكانت قرابة رسول الله أحب إليهم من قرابتهم، وصلة رحمه أحب إليهم من صلة أرحامهم، ودخول قرابته في الإسلام أحب إليهم من دخول قرابتهم في الإسلام، وهذا أعظم الحب وأبلغه. ولم لا يكون ذلك منهم وقد علموا ما جعل الله لآل بيت رسوله حيث أخبر أنه يريد أن يطهرهم من كل ما يشينهم ظاهراً وباطناً.

وكذلك كان حال الآل تجاه الصحابة، فصاهروهم، وظاهروهم، وعرفوا لهم حقهم وفضلهم وجهادهم، وما عُلم على أحد منهم أنه ينقم على أحد من الصحابة، وخاصة خيارهم رضي الله عنهم.

ثم إن الله اشترط على المؤمنين من بعدهم -أي: بعد الصحابة - أن يتبعوهم ويسيروا على منهجهم ويقتفوا آثارهم، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وأخرج ابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي رضي الله عنه: أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أريد الفتن؟ فقال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لهم الجنة في كتابه، محسنهم ومسيئهم. قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال: ألا تقرأ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ الآية،

أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم. قلت: وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان. يقول: يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: لكأني لم أقرأها قبل ذلك، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب[١].

ونحن في هذا البحث – بعون الله – سنستعرض آيات كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونعرض لما ورد فيه من آيات كريمات تبين فضل الرعيل الأول من الآل والأصحاب ﷺ، وسنحاول أن نبذل قصارى الجهد في استقصاء ذلك، وإنما اقتصرنا على الكتاب دون السنة؛ لأن كتاب الله محل اتفاق وقبول بين أفراد الأمة الإسلامية فلا يجد المخالف سبيلاً إلى مخالفته، إلا محض العناد والمكابرة لكلام رب الأرباب سبحانه.

وقد عمدنا في هذا إلى الجمع بين مناقب الآل الأصحاب، لأن أغلب ما كتب في هذا الموضوع إما أن يقتصر على مناقب آل البيت فقط، أو مناقب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فجاء هذا البحث جامعاً لمناقب الفريقين، لبيان العلاقة الوثيقة بينهما، ورد كيد من يسعى سعياً حثيثاً للتفريق بين الآل والأصحاب وجعل كل منهما مخالفاً للآخر مخاصماً له، وقد قوي هذا الاتجاه في هذه الأعصار وأصبحت له منابر إعلامية متعددة تريد إيصال رسالة للناس مفادها: أن آل البيت كانوا مهضومين من قبل الصحابة؛ فلذا عادوهم وناهضوهم، وفي الحقيقة أن كل هذا لم يكن، فقد كانوا لحمة واحدة بنصوص كتاب الله تعالى التي أثنت عليهم جميعاً دون تفرقة بين أحد منهم.

كما أن فئاماً من الناس جعلوا المدخل للنيل من الصحابة والطعن في عدالتهم وتفسيقهم بل وتكفيرهم هو الكلام عن ظلامة آل بيت رسول الله ﷺ التي كانت عليهم،

---

(١) تاريخ دمشق (٥٥/ ١٤٧).

ويا لله! أين كتاب الله الذي قال الله فيه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]؟ لم يشر ولو إشارات طفيفة معتبرة الدلالة عن انحراف هؤلاء الأصحاب، الذين آمنوا – كما يزعمون – نفاقاً؟!

وقد فضح الله المنافقين على رءوس الأشهاد في سورة الفاضحة، وأنزل سورة كاملة سميت بـ(المنافقون) تتكلم عنهم، ولا نجد في ذلك شيئاً يمس الأصحاب الكرام، وإنما نصوصه واضحة في المنافقين اللئام الذي برزت مواقفهم الردية، وبدت طواياهم الدنية.

وأما في حق الآل والأصحاب فلا نجد في كتاب الله إلا تزكية ومدحاً لآل البيت والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن مدحهم وأثنى عليهم هو الذي يعلم ظواهرهم وبواطنهم، وما كان عليه أمرهم وما سيئول إليه، وهو الله عالم الغيب والشهادة، والسر والعلن، فمن أراد أن يقدح فيهم بحجة أنهم قد اختلفوا بعد وفات رسول الله ﷺ فإنما يكذب بآيات الله ﷻ؛ لأن الله ارتضاهم وزكاهم وأثنى عليهم، ولم يشر من قريب ولا من بعيد إلى أنهم سيغيرون حالهم أو سيبدلون معتقداتهم، مع أنه سبحانه يعلم أنهم سيمسكون زمام أمور الأمة بعد نبيهم ﷺ، فلو كانوا كما يزعمون لما حفظ الله الدين بهم، فقاتلوا المرتدين، وفتحوا الأمصار، وجمعوا كتاب الله ودونوه، وغيرها من أعمال البر التي لا يمكن أن تظهر من منافق.

فالحاصل: أننا نسعى من خلال هذا البحث إلى إبراز تزكية الله للآل الذين ما انتقدوا ولا ثاروا على الخلفاء الراشدين، وفي هذا تعديل ضمني لهم، وكذلك إبراز تزكية وتعديل الصحابة؛ إذ لا إشارة من قريب ولا من بعيد لمثلب فيهم، بل وردت نصوص بينات تعدد مناقبهم، وتثني على مواقفهم كما سيأتي معنا، إذ سنمر على الآيات التي صرحت أو لمحت لمنقبة أو فضيلة لواحد من آل البيت أو لجميعهم، أو لواحد من الصحابة أو جميعهم، أو أثنت على كلا الفريقين اللذين هما في الحقيقة فريق واحد– وهذا ما نسعى إليه ونريد

إبرازه- ومعلوم أنه إذا قال الله بطل كل قول وقائل، فلا يكـون لأحـد مـدخلاً للثلـب، أو مخرجاً للطعن في واحد من الصحابة أو الآل الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عـنهم راض، فعمدتنا في ذلك هو كتاب الله تعالى، وما سنورده من آثـار أو أحاديـث فهـي للاعتـضاد لا للاعتماد، كما أننـا سنحاول ذكـر تفـسير جميع الآيـات التـي سـنوردها مـن كتـب التفـسير المعتمدة، مع ذكر أسباب النزول أحياناً، وذكر القول الراجح مـا أمكـن ذلـك سـبيلاً، وفي الآيات التي يكون في تفسيرها خلاف بين أهل العلم ولا يمكن الجمع بـين أقـوالهم نعمـد فيها إلى الترجيح بما تتوافر من القرائن.

تعريف الآل والأصحاب وذكر عدالتهم

قبل أن نشرع في سرد الآيات في فضائل الآل والأصحاب لا بد أن نعلم من هم الآل والأصحاب، وما معنى عدالتهم؟ وما سبب قرننا للآل بالأصحاب؟

أولاً: تعريف الآل:

الآل لغة: هم الأهل والعيال والأتباع. فآلُ الرجل: أهله وعياله، وآلُهُ أيضاً: أتباعه[1].

أما تعريف الآل اصطلاحاً فقد ذهب طائفة من العلماء إلى أن الآل: هم الأزواج والذرية. ووجهه: أنه أقام الأزواج والذرية مقام آل محمد في عدة روايات منها:

حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه: «أنهم قالوا: يا رسول الله! كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[2] متفق عليه.

كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ لأن ما قبل الآية وبعدها في الزوجات؛ فأشعر ذلك بإرادتهن، وأشعر تذكير المخاطبين بها بإرادة غيرهن.

وقيل: إن الآل هم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم بنو هاشم. واستدل القائل بذلك: بأن زيد بن أرقم فسر الآل بهم، وبيَّن أنهم آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس - كما في صحيح مسلم[3]- والصحابي أعرف بمراده ﷺ؛ فيكون تفسيره قرينة على التعيين.

---

(١) مختار الصحاح (٥/ ٣١٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٣٦٩)، ومسلم برقم (٤٠٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨).

وقيل: إنهم بنو هاشم وبنو المطلب. وإلى ذلك ذهب الشافعي.

وقيل: فاطمة وعلي والحسنان وأولادهم. وإلى ذلك ذهب جمهور أهل البيت. واستدلوا بحديث الكساء الثابت في صحيح مسلم وغيره، وقوله ﷺ فيه: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي»[(١)]. مشيراً إليهم. ولكنه يقال: إن كان هذا التركيب يدل على الحصر باعتبار المقام أو غيره، فغاية ما فيه إخراج من عداهم بمفهومه، والأحاديث الدالة على أنهم أعم منهم كما ورد في بني هاشم وفي الزوجات مخصصة بمنطوقها لعموم هذا المفهوم، واقتصاره ﷺ على تعيين البعض عند نزول الآية لا ينافي إخباره بعد ذلك بالزيادة؛ لأن الاقتصار ربما كان لمزية البعض، أو قبل العلم بأن الآل أعم من المعنيين.

ثم يقال: إذا كانت هذه الصيغة تقتضي الحصر فما الدليل على دخول أولاد المجللين بالكساء في الآل مع أن مفهوم هذا الحصر يخرجهم؟ فإن كان إدخالهم بمخصص وهو التفسير بالذرية وذريته ﷺ هم أولاد فاطمة فما الفرق بين مخصص ومخصص؟

وقيل: إن الآل هم القرابة من غير تقييد. وإلى ذلك ذهب جماعة من أهل العلم.

وقيل: هم الأمة جميعاً. قال النووي في شرح مسلم: (واختلف العلماء في آل النبي ﷺ على أقوال أظهرها – وهو اختيار الأزهري وغيره من المحققين– أنهم جميع الأمة)[(٢)].

وإليه ذهب نشوان الحميري إمام اللغة، ومن شعره في ذلك:

آل النبـــي هـــم أتبـــاع ملتـــه   من الأعاجم والسودان والعرب

لـــو لم يكـــن آلـــه إلا قرابتـــه   صلى المصلي على الطاغي أبي لهب

---

(١) الحديث أصله في صحيح مسلم برقم (٢٤٢٤)، وهو بهذا اللفظ عند الترمذي برقم (٣٧٨٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٢٤).

ويدل على ذلك أيضاً: قول عبد المطلب:

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

والمراد بآل الصليب: أتباعه.

(ومن الأدلة) على ذلك: قول الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٦]؛ لأن المراد بآله: أتباعه.

واحتُج لهذا القول بما أخرجه الطبراني: أن النبي ﷺ لما سئل عن الآل قال: «آل محمد كل تقي»[١]. وروي هذا من حديث علي ومن حديث أنس وفي أسانيدها مقال.

ويؤيد ذلك معنى الآل لغة؛ فإنهم - كما قال في مختار الصحاح -: أهل الرجل وأتباعه. ولا ينافي هذا اقتصاره ﷺ على البعض منهم في بعض الحالات - كما تقدم - وكما في حديث مسلم في الأضحية: «اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد»[٢]. فإنه لا شك أن القرابة أخص الآل؛ فتخصيصهم بالذكر ربما كان لمزايا لا يشاركهم فيها غيرهم كما قد عرفت. وتسميتهم بـ(الأمة) لا ينافي تسميتهم بالآل، وعطف التفسير شائع ذائع كتاباً وسنة ولغة، على أن حديث أبي هريرة المذكور آخر هذا الباب فيه عطف أهل بيته على ذريته، فإذا كان مجرد العطف يدل على التغاير مطلقاً لزم أن تكون ذريته خارجة عن أهل بيته، والجواب الجواب.

ولكن ههنا مانع من حمل الآل على جميع الأمة، وهو حديث: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي... »[٣] الحديث. فلو كان الآل جميع الأمة

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٢٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٩٦٧).

(٣) رواه أحمد برقم (١١٥٧٨)، والترمذي برقم (٣٧٨٦).

لكان المأمور بالتمسك والأمر المتمسك به شيئاً واحداً، وهو باطل، يُتنزه عن مثله من أوتي جوامع الكلم ﷺ[١].

ومن خلال هذه الأقوال يتبين أن آل النبي ﷺ أصناف:

الصنف الأول: من حرمت عليهم الصدقة وعوضوا بالخمس، وهم: آل علي، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل. وهؤلاء هم أقرب الناس إلى رسول الله وألصقهم به نسباً، وآل علي أشد قرباً والتصاقاً به من غيرهم؛ ولذلك جلَّلهم بالكساء دون غيرهم، وقال عنهم في غير ما موضع: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»[٢].

الصنف الثاني: من كان في بيته مخالطاً ومعاشراً له، وهن: أزواجه رضوان الله عليهن، ولا شك أنهن من أهل بيته؛ لأمور:

منها: أنهن بعد نزول آية التخيير اخترن الله ورسوله؛ فبقين معه إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ﷺ.

ومنها: أنهن زوجاته في الجنة.

ومنها: أنه قال لأم سلمة رضي الله عنها: «إنك من أهلي». كما في حديث عبد الله بن وهب بن زمعة قال: أخبرتني أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جمع علياً والحسنين، ثم أدخلهم تحت ثوبه ثم جأر إلى الله ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». فقالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله! أدخلني معهم. فقال ﷺ: «أنت من أهلي»[٣]. وإن كان قد ورد عنه ﷺ في رواية

(١) انظر: نيل الأوطار- باب ما يستدل به على تفسير آله المصلى عليهم (٢/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٣٠٨) (٦٩٦)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ٢٣٧).

أخرى: أنه قال لها: «إنك إلى خير»[١].

الصنف الثالث: من آمن به وصدقه ونصره وآزره، ويدخل فيه جميع الأمة.

وقد ورد عن النبي ﷺ ما يدل على هذا:

منها: عن أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع رضي الله عنه إذ ذكروا علياً رضي الله عنه فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم، فألقى ﷺ عليهم كساءً له، ثم قال لهم: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله وأنا؟ قال ﷺ: وأنت. قال: فوالله إنها لأوثق عمل عندي[٢].

وفي رواية: «وأنت من أهلي»، قال واثلة رضي الله عنه: وإنها من أرجى ما أرتجي[٣].

فالنبي ﷺ قد أخبر واثلة أنه من أهله، مع أنه ليس بينه وبين رسول الله نسب ولا قرابة، ولا كان في بيته، وإنما لكونه مؤمناً مصدقاً.

وعلى هذا التقسيم فإن المدح الوارد في القرآن أو السنة للآل يشمل جميع هذه الأصناف، إلا أن توجد قرينة تصرفه إلى أحدها.

ثانياً: تعريف الأصحاب:

الصحابي لغة: من صحبه كسمعه يصحبه صحابةً بالفتح ويكسر، وصحبةً بالضم كصاحبه: عاشره. والصاحب: المعاشر[٤].

---

(١) رواه أحمد برقم (٢٦٥٥١)، والترمذي برقم (٣٨٧١).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٦٥) (١٥٩)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٦-٧).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٩٧٦)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٧).

(٤) تاج العروس (٣/ ١٨٥).

قال السخاوي رحمه الله: (على أن القاضي أبا بكر بن الطيب الباقلاني قال: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصحابي مشتق من الصحبة، جار على كل من صحب غيره قليلاً أو كثيراً. يقال: صحبه شهراً ويوماً وساعة. قال: وهذا يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة. هذا هو الأصل... ولذا قال النووي في مقدمة شرح مسلم عقب كلام القاضي أبي بكر: وبه يستدل على ترجيح مذهب المحدثين؛ فإن هذا الإمام قد نقل عن أهل اللغة أن الاسم يتناول صحبته ساعة أو أكثر، وأهل الحديث قد نقلوا الاستعمال في الشرع والعرف على وفق اللغة؛ فوجب المصير إليه[(١)] [(٢)].

وأما تعريف الصحابي اصطلاحاً فهناك عدة تعريفات اصطلاحية للصحابي، منها: أن الصحابي: هو من اجتمع بالنبيّ ﷺ مُؤْمِناً به، ومات على ذلك[(٣)].

وقال علي بن المديني رحمه الله: (من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار، فهو من أصحاب النبي ﷺ)[(٤)].

وقال النووي رحمه الله: (فأما الصحابي فكل مسلم رأى رسول الله ﷺ ولو لحظة. هذا هو الصحيح في حده. وهو مذهب أحمد بن حنبل، وأبي عبد الله البخاري في صحيحه، والمحدثين كافة، وذهب أكثر أصحاب الفقه والأصول إلى أنه من طالت صحبته له ﷺ)[(٥)].

ولكن التعريف الصحيح المعتمد هو ما قرره الحافظ ابن حجر رحمه الله بقوله: (وأصح

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/ ٣٦).

(٢) فتح المغيث (٣/ ٩٤).

(٣) ذكره الزبيدي في تاج العروس (١/ ٥٧).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٣٦).

ما وقفت عليه من ذلك: أن الصحابي هو من لقي النبي مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة على الأصح).

ثم شرح تعريفه قائلاً: ("فيدخل فيمن لقيه" من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى. ومن هنا كان التعبير باللقي أولى من قول بعضهم: «الصحابي من رأى النبي ﷺ»؛ لأنه يخرج حينئذ ابن أم مكتوم ونحوه من الأكفاء، وهم صحابة بلا تردد.

ويخرج "بقيد الإيمان": من لقيه كافراً ولو أسلم بعد ذلك، إذا لم يجتمع به مرة أخرى.

وقولنا: "به" يخرج من لقيه مؤمناً بغيره، كمن لقيه مؤمناً من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة. ويدخل في قولنا: "مؤمناً به": كل مكلف من الجن والإنس.

وخرج بقولنا: "ومات على الإسلام": من لقيه مؤمناً به ثم ارتد ومات على ردته، والعياذ بالله - كعبيد الله بن جحش، وابن خطل. ويدخل فيه من ارتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء اجتمع به مرة أخرى أم لا، كالأشعث بن قيس؛ فإنه كان ممن ارتد ثم أسلم في حياة رسول الله، لكنه لم يلقه، وأُتي به إلى أبي بكر الصديق أسيراً، فعاد إلى الإسلام فقبل منه، وزوجه أخته، ولم يتخلف أحد عن ذكره في الصحابة، ولا عن تخريج أحاديثه في المسانيد وغيرها.

وهذا هو الصحيح المعتمد، ووراء ذلك أقوال شاذة أخرى، كقول من قال: لا يعد صحابياً إلا من وصف بأحد أوصاف أربعة: من طالت مجالسته، أو حفظت روايته، أو ضبط أنه غزا معه، أو استشهد بين يديه. وكذا من اشترط في صحة الصحبة: بلوغ الحلم، أو المجالسة ولو قصرت)[1].

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٠-١٢)، نزهة النظر (ص٥١-٥٢).

قال الحافظ السيوطي مؤيداً كلام الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى: (وهو المعتبر)[١].

وذهب إليه الجمهور من الأصوليين، ومنهم: الآمدي في الإحكام[٢]، وابن عبد الشكور في فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت[٣]، والزركشي في البحر المحيط[٤]، والشوكاني في إرشاد الفحول[٥] وغيرهم.

ويقول الحافظ السخاوي - مؤيداً رأي شيخه ابن حجر -: (والعمل عليه عند المحدثين والأصوليين)[٦].

ثالثاً: سر التعميم في تعريف الصحابي:

وسر التعميم في تعريف الصحابي نظراً إلى أصل فضل الصحبة، ولشرف منزلة النبي ﷺ؛ ولأن لرؤية نور النبوة قوة سريان في قلب المؤمن، فتظهر آثارها على جوارح الرائي في الطاعة والاستقامة مدى الحياة ببركتها، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي»[٧] ومما سبق من التعاريف نعلم أن الآل بالمعنى الأخص -وهم قرابته ﷺ- يشتركون مع الأصحاب في الفضائل المذكورة في الكتاب العزيز.

---

(١) تدريب الراوي (٢/ ٢١٦).

(٢) انظر: الإحكام للآمدي (٢/ ٨٤-٨٥).

(٣) انظر: فتح الرحموت (٢/ ١٥٨).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/ ٣٠٢-٣٠٥).

(٥) إرشاد الفحول (١/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٦) فتح المغيث (٣/ ٩٣).

(٧) رواه أحمد في مسنده برقم (١١٦٩١)، وابن حبان في صحيحه برقم (٧٢٣٠).

رابعاً: سبب قرننا للآل بالأصحاب:

قد يتساءل الناظر في كتابنا هذا عن سبب قرننا للآل بالأصحاب، والسبب في ذلك يرجع إلى أمور كثيرة، منها:

١- أن فئاماً من الناس يتهمون أهل السنة بعدم حب آل بيت رسول الله ﷺ، ويحتكرون حب آل البيت رضوان الله عليهم، وليس لهم على ذلك بينة تذكر، بل رجماً بالغيب؛ فأردنا أن يعلموا أننا برآء مما يرجموننا به من تهم هي في الحقيقة من صفات النواصب الذين سيأتي ذكرهم ومعتقدهم في الفصل الثاني من الباب الثالث.

٢- أن الآل والأصحاب رضوان الله عليهم كان بينهم من الروابط المتينة من مصاهرة وأخوة ومناصرة وحب ما يجعلهم شيئاً واحداً، ولذلك لم نسمع بالفروقات التي نسمعها اليوم بينهم إلا من غيرهم أو من جهلة المتأخرين.

٣- ظن كثير من الناس وجود فوارق بين الآل والأصحاب؛ لأن أغلب البحوث إما أن تنفرد بفضائل آل البيت رضي الله عنهم، أو بفضائل الصحابة رضي الله عنهم، كلاً على حدة، فجاء هذا البحث جامعاً لفضائل الفريقين، مستمداً ذلك من كتاب الله فقط.

٤- يظن البعض أن الاهتمام بفضائل الصحابة وذكر مآثرهم يقتضي حبهم دون آل البيت، ولم يدر أن حب آل البيت متأصل في قلوبنا، متجذر في أفئدتنا، وليس الآل إلا من جملة الأصحاب عند حديثنا عنهم، وما هذا البحث إلا قطرة من سيل من مؤلفات أهل السنة في ذلك، فكم أفرد العلماء هذه المواضيع بمصنفات مستقلة سلفاً وخلفاً، ولكن لم يطلع عليها القوم جهلاً أو تجاهلاً.

٥- ومن أسباب قرننا للآل والأصحاب: أنهم كانوا في نصرة الإسلام سواء، فجميعهم قد شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ؛ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من انتظر

حتى قضى نحبه وما بدلوا تبديلاً، على تفاوت بينهم في المنازل والدرجات، فاقتضى ذلك عدم التفريق بينهم، كما أن لفظ الصحبة يشمل كل فرد من آل البيت ممن لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ذلك ردة على الأصح.

خامساً: تعريف العدالة

العدالة لغة: العَدْلُ ضد الجور. يقال: عَدَلَ عليه في القضية من باب ضرب، فهو عادِلٌ. وبسط الوالي عَدْلَهُ، ومَعْدَلَتَهُ بكسر الدال وفتحها. وفلان من أهل المَعْدَلةِ -بفتح الدال- أي: من أهل العدل، ورجل عَدْلٌ أي: رضاً[1]. و(فلان عدل) أي: آتٍ بالواجبات تارك للمقبحات[2].

العدالة اصطلاحاً: اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في رسم العدالة، فضلاً عن حدها، وهنا كان لا بد لنا من أن نعرض لأقوالهم في تعريفها، وهي على النحو التالي:

قال بعضهم: العدالة هي ملكة تمنع من اقتراف الكبائر والإصرار على الصغائر.

وقال بعضهم: هي ملكة تمنع من اقتراف الكبائر وعن فعل صغيرة تشعر بالخسة، كسرقة باقة بقل[3].

وقال الغزالي رحمه الله: (العدالة - أي: في الرواية والشهادة - عبارة عن استقامة السيرة والدين، ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعاً؛ حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه، فلا ثقة بقول من لا يخاف الله تعالى خوفاً وازعاً عن الكذب) ا.هـ[4].

---

(١) مختار الصحاح (١/ ٤٦٧).

(٢) توضيح الأفكار (٢/ ١٨٨).

(٣) انظر: توجيه النظر إلى أصول الأثر (١/ ٩٤).

(٤) المستصفى (١/ ٣١٣).

والتقوى ضابطها: امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات من الكبائر ظاهراً وباطناً، من شرك أو فسق أو بدعة.

والمروءة ضابطها: آداب نفسية، تحمل صاحبها على التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، وترجع معرفتها إلى العرف.

وليس المراد بالعرف هنا سيرة مطلق الناس، بل الذين يُقتدى بهم.

ولا تتحقق العدالة في الراوي إلا إذا اتصف بصفات خمس: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والسلامة من أسباب الفسق، وخوارم المروءة[١].

وليس المقصود من العدل أن يكون بريئاً من كل ذنب، وإنما المراد أن يكون الغالب عليه التدين، والتحري في فعل الطاعات.

وفى ذلك يقول الإمام الشافعي ﵀: (لو كان العدل من لا ذنب له لم نجد عدلاً، ولو كان كل مذنب عدلاً لم نجد مجروحاً، ولكن العدل من اجتنب الكبائر؛ وكانت محاسنه أكثر من مساويه)[٢].

ويعبر أبو يوسف ﵀ عن هذا الاتجاه حين يقول: (من سلم أن تكون منه كبيرة من الكبائر التي أوعد الله تعالى عليها النار، وكانت محاسنه أكثر من مساوئه فهو عدل)[٣].

ونخلص مما سبق - فيما يخص تعريف الصحابة -: إلى أن المنافقين الذين كشف الله ورسوله سترهم، ووقف المسلمون على حقيقة أمرهم، والمرتدين الذين ارتدوا في حياة

---

(١) انظر: فتح المغيث (٣/ ٣١٥-٣١٧)، توضيح الأفكار للصنعاني (٢/ ١١٤-١١٨)، مقاصد الحديث في القديم والحديث للدكتور التازي (٢/ ٦٥-٦٦).

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ٢٨).

(٣) توثيق السنة في القرن الثاني الهجري للدكتور رفعت فوزي (ص١٢٩).

النبي ﷺ وبعد وفاته ولم يتوبوا ويرجعوا إلى الإسلام وماتوا على ردتهم هم بمعزل من شرف هذه الصحبة، وبالتالي فهم بمعزل عن أن يكونوا من المرادين بقول جمهور العلماء والأئمة: إنهم عدول، ففي تعريف العلماء للصحبة ما ينفيها عن هؤلاء وأولئك.

سادسا: معنى عدالة الصحابة:

وعدالة الصحابة: أنهم لا يتعمدون الكذب على رسول الله ﷺ؛ لما اتصفوا به من قوة الإيمان، والتزام التقوى، والمروءة، وسمو الأخلاق، والترفع عن سفاسف الأمور.

وليس معنى عدالتهم: أنهم معصومون من المعاصي أو من السهو أو الغلط؛ فإن ذلك لم يقل به أحد من أهل العلم.

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الذين قارفوا إثماً - من الصحابة رضوان الله عليهم - ثم حُدوا كان ذلك كفارة لهم، وتابوا وحسنت توبتهم، وهم في نفس الوقت قلة نادرة جداً، فلا ينبغي أن يُغلَّب شأنهم وحالهم على حال الألوف المؤلفة من الصحابة الذين ثبتوا على الجادة والصراط المستقيم[1].

---

(١) انظر: دفاع عن السنة للدكتور محمد أبو شهبة (٩٢).

الآيات الواردة في فضل الآل والأصحاب عموماً

❖ قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٣٣]

والشاهد في هذه الآية: هو أن الله سبحانه أخبر عن إرادته تطهير آل البيت وتنقيتهم من الرجس، وهو في الأصل القذر، واستعير هنا للنقائص من الذنوب ونحوها[١]. وتأمل معي أن اللام في الرجس للاستغراق الدال على العموم، فجميع أنواع الرجس منتف عن آل بيت رسول الله ﷺ.

وهذا الأمر كائن على الدوام؛ إذ إن (يريد) و(يذهب) فعلان مضارعان، ومعلوم أن التعبير بالجملة الفعلية يدل على الاستمرار والدوام. أي: أن الله يطهرهم على الدوام من أرجاس الذنوب.

والخطاب في هذه الآية المباركة لأزواج النبي ﷺ؛ لأنهن سبب نزولها. ومعلوم: أن صورة سبب نزول الآية داخلة دخولاً قطعياً أولياً فيها؛ لكنه معلوم أيضاً: أن العبرة بعموم اللفظ؛ فيريد الله سبحانه تطهير آل البيت جميعاً بما شرعه من أحكام.

وأيضاً: في الآية دلالة على أن أزواج النبي ﷺ جميعهن داخلات دخولاً أولياً في أهل بيته ﷺ، رغم أنوف المعاندين.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٣٢٦).

أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح)[١].

فالحاصل: أن هذه الآية المباركة فيها الدلالة البينة على عدالة من أسلم من آل بيت رسول الله ﷺ، وفي مقدمتهم أزواجه رضي الله عنهم.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه أراد تطهيرهم من النقائص، وأكد هذا التطهير – مبالغة فيه – بالمفعول المطلق، فقال: ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فإذا ثبت تطهرهم من النقائص اقتضى تحليهم بالكمالات والفضائل، وهذا تعديل لهم.

❖ **قال تعالى**:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

[البقرة: ١٤٣]

قيل: إن هذه الآية المراد منها الصحابة دون غيرهم (أي ممن بعدهم) ولا شك أن آل البيت داخلون مع الصحابة في هذه الآية، وكل آية أثنت عليهم وذكرت محاسنهم.

ووجه دلالة هذه الآية على عدالة الآل والأصحاب: أنها أثبتت الخيرية المطلقة لهذه الأمة على سائر الأمم قبلها، وأول من يدخل في هذه الخيرية: المخاطبون بهذه الآية مباشرة عند النزول، فهم صدر هذه الأمة من الصحابة الكرام والآل العظام عليهم جميعاً من الله الرضوان، وذلك يقتضي استقامتهم في كل حال، وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة. ومن البعيد أن يصفهم الله بأنهم خير أمة ولا يكونون أهل عدل واستقامة. وهل الخيرية إلا ذلك؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٤).

كما أنه لا يجوز أن يُخبر الله تعالى بأنه جعلهم أمة وسطاً – أي: عدولاً – وهم على غير ذلك؛ فيصح أن يطلق على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط –أي: عدول– بإطلاق[1].

قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير هذه الآية: (والخطاب في قوله: ﴿ كُنتُمْ ﴾ إمَّا لأصحاب الرسول ﷺ، ونقل ذلك عن عمر بن الخطاب، وابن عبَّاس. قال عمر: هذه لأوّلنَا ولا تكون لآخِرنا. وإضافة ﴿ خَيْرَ ﴾ إلى ﴿ أُمَّةٍ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: كنتم أمَّة خير أمَّة أخرجت للنَّاس. فالمراد بالأمّة: الجماعة... ولا شكّ أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم؛ لأن رسولهم أفضل الرسل؛ ولأن الهدى الذي كانوا عليه لا يماثله هدى أصحاب الرسل الذين مضوا؛ فإن أخذت الأمة باعتبار الرسول فيها فالصحابة أفضل أمة من الأمم مع رسولها. قال النبي ﷺ: « خير القرون قرني»[2].

والفضل ثابت للمجموع على المجموع، وإن أخذت الأمة من عدا الرسول، فكذلك الصحابة أفضل الأمم التي مضت بدون رُسلها، وهذا تفضيل للهدى الذي اهتدوا به، وهو هدى رسولهم محمد ﷺ وشريعته. وإمّا أن يكون الخطاب بضمير ﴿ كُنتُمْ ﴾ للمسلمين كلّهم في كلّ جيل ظهروا فيه) [3].

---

(١) الموافقات (٤/ ٤٥٠-٤٥٢) بتصرف.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٤٥١)، ومسلم برقم (٢٥٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٢).

❖ قال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر: ٨] أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوان، ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر: ٨]، أي: هؤلاء الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الحشر: ٩]، أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: «وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم»(١)، رواه البخاري هاهنا أيضاً.

وقوله: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر: ٩]. أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس قال:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٠٦).

قال المهاجرون: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ؛ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[١]. لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن يحيى بن سعيد، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين. قالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا فاصبروا حتى تلقوني؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[٢]. تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا الحكم بن نافع أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقالوا: أتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا»[٣]. تفرد به دون مسلم.

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ [الحشر: ٩]. أي: ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضَّلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال الحسن البصري ﷺ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ [الحشر: ٩] يعني: الحسد.

﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ [الحشر: ٩]. قال قتادة ﷺ: يعني فيما أعطى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد.

ومما يستدل به على هذا المعنى: ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع

---

(١) مسند أحمد برقم (١٣٠٩٧)، ورواه الترمذي برقم (٢٤٨٧).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٥٨٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٢٠٠).

عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم.

قال أنس رضي الله عنه: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله! لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟! قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق[1]. ورواه النسائي في اليوم والليلة عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر به، وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين. لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري عن رجل عن أنس، فالله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ [الحشر: ٩]، يعني: مما أوتوا المهاجرين. قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض

(١) مسند أحمد برقم (١٢٧٢٠)، عمل اليوم والليل للنسائي برقم (٨٦٣).

من تكلم من الأنصار فعاتبهم الله في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ ﴾ [الحشر: ٦]. قال: وقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم». فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر» فقالوا: نعم يا رسول الله[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ﴾ [الحشر: ٩]، يعني: حاجة. أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة: جهد المقل»[2].

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله[3].

وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٤٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٨٦٨٧)، والنسائي برقم (٢٥٢٦)، وأبو داود برقم (١٤٤٩).

(٣) رواه أبو داود برقم (١٦٧٨)، والترمذي برقم (٣٦٧٥) وقال: (حسن صحيح). ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٧٤) (١٥١٠) وقال: (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه).

الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم.

وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير حدثنا أبو أسامة حدثنا فضيل بن غزوان حدثنا أبو حازم الأشجعي عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][1]. وكذا رواه البخاري في موضع آخر، ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن فضيل بن غزوان، وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]، أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح)[3].

فالصادقون هم المهاجرون، والمفلحون هم الأنصار. بهذا فسر أبو بكر الصديق رضي الله عنه هاتين الكلمتين من الآيتين، حيث قال في خطبته يوم السقيفة مخاطباً الأنصار: إن الله سمانا (الصادقين) وسماكم (المفلحين)، وقد أمركم أن تكونوا حيثما كنا، فقال:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٠٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٠٥٤)، جامع الترمذي برقم (٣٣٠٤)، سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٨٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. ولا شك ولا ريب أن من آل بيت رسول الله مهاجرين كعلي وحمزة وغيرهم، فهم داخلون في هذه الآية مع إخوانهم المهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم.

❖ **قال تعالى:**

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: (يقول الله تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله ﴿ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام طلب رضا الله ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ ومعنى الكلام رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يدخلونها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ لابثين فيها ﴿ أَبَدًا ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾)[1].

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فقال بعضهم: هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، أو أدركوا.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٩).

فعن مطرف عن عامر قال: (المهاجرون الأولون) من أدرك البيعة تحت الشجرة.

وعن الشعبي قال: (المهاجرون الأولون) من كان قبل البيعة إلى البيعة فهم المهاجرون الأولون، ومن كان بعد البيعة فليس من المهاجرين الأولين.

وقال آخرون: بل هم الذين صلوا القبلتين مع رسول الله ﷺ فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: المهاجرون الأولون من صلى القبلتين مع النبي ﷺ.

وعن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: لم سموا (المهاجرين الأولين)؟ قال: من صلى مع النبي ﷺ القبلتين جميعاً فهو من المهاجرين الأولين.

وعن أشعث عن ابن سيرين في قوله: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ قال: هم الذين صلوا القبلتين[1].

والراجح والله أعلم: أن السابقين الأولين: هم من أسلم قبل صلح الحديبية إلى صلح الحديبية؛ لأن الله سبحانه وكذلك نبيه ﷺ لم يرتب على الصلاة إلى القبلتين أي مزية، ولم يذكر لمن صلى إليهما أي فضيلة على غيرهم كما رتب على الإنفاق والجهاد والهجرة؛ فدل على أن المراد هم من سبق بالهجرة والإنفاق والجهاد قبل صلح الحديبية، أما من أسلم بعد الصلح فليسوا من السابقين الأولين غير أنهم أفضل من مسلمة الفتح.

ويؤيد هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله بقوله: (ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١٠٠] هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين هم من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف؛ فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة، ولأن النسخ ليس من فعلهم الذي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٧).

يفضلون به، ولأن التفضيل بالصلاة إلى القبلتين لم يدل عليه دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة تحت الشجرة ولكن فيه سبق الذين أدركوا ذلك على من لم يدركه.

كما أن الذين أسلموا قبل أن تفرض الصلوات الخمس هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم، والذين أسلموا قبل أن تجعل صلاة الحضر أربع ركعات هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم، والذين أسلموا قبل أن يؤذن في الجهاد أو قبل أن يفرض صيام شهر رمضان هم سابقون على من أسلم بعدهم، والذين أسلموا قبل أن يفرض الحج هم سابقون على من تأخر عنهم، والذين أسلموا قبل تحريم الخمر هم سابقون على من أسلم بعدهم، والذين أسلموا قبل تحريم الربا كذلك، فشرائع الإسلام من الإيجاب والتحريم كانت تنزل شيئاً فشيئاً، وكل من أسلم قبل أن تشرع شريعة فهو سابق على من تأخر عنه وله بذلك فضيلة، ففضيلة من أسلم قبل نسخ القبلة على من أسلم بعده هي من هذا الباب، وليس مثل هذا مما يتميز به السابقون الأولون عن التابعين؛ إذ ليس بعض هذه الشرائع بأولى بجعله خيراً من بعض، ولأن القرآن والسنة قد دلا على تقديم أهل الحديبية؛ فوجب أن تفسر هذه الآية بما يوافق سائر النصوص.

وقد علم بالاضطرار أنه كان في هؤلاء السابقين الأولين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير، وبايع النبي ﷺ بيده عن عثمان؛ لأنه كان غائباً قد أرسله إلى أهل مكة ليبلغهم رسالته وبسببه بايع النبي ﷺ الناس لما بلغه أنهم قتلوه.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[(1)])[(2)].

والشاهد من الآية على عدالة السابقين من المهاجرين وفيهم الآل وكذا الأنصار: أن

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٧-٢٩).

الله أحل عليهم رضوانه، وهو المطلع على ظواهرهم وسرائرهم، ووعدهم بالجنة، ولم يرض بذلك لمن بعدهم إلا بشرط الاتباع لهم بإحسان؛ فدل على رسوخ الإيمان في قلوبهم، وعلو درجتهم عند مليكهم. فأي تزكية أعظم من هذه التزكية؟ وأي تعديل أكبر من هذا التعديل؟!

❖ **وقال تعالى:** ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الواقعة: ١١]

الشاهد هنا: أن الله عز وجل أخبر أن السابقين إلى الإسلام المبادرين إلى الإيمان والأعمال الصالحات - وهذا الوصف متحقق في السابقين من الآل والأصحاب على الكمال والتمام- أخبر أنهم سينالون القرب من الله ﷻ، وكان هذا الإخبار بصيغة الجملة الاسمية فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الواقعة: ١١] وهي تفيد الثبوت. أي: أن القرب من الله صفة ثابتة راسخة فيهم لحيازتهم قدم السبق في هذا الدين.

ولا يمكن أن يكون هذا القرب إلا لمؤمن توافرت فيه على الأقل شروط العدالة: من عدم مواقعة الكبائر، أو الإصرار على الصغائر. فهذا تعديل لسابقي الآل والأصحاب، عليهم من الله الرحمة والرضوان.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال الواردة في من هم السابقون، قال عقبها: (وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين: هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمروا، كما قال تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾[آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]. فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩])[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٤).

❖ وقال تعالى:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨]

ووجه الشاهد: هو إخبار الله ﷻ لعباده الذين شهدوا بيعة الرضوان تحت السمرة، أن رضوانه قد حل عليهم، وأن سكينته قد نزلت إليهم، ولم تنزل عليهم هذه السكينة وهذا الرضوان إلا لما علمه الله من صدق في قلوبهم، ووفاء بعهودهم لرسول الله ﷺ.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان عند تفسير هذه الآية: (ولما علم جلَّ وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، نوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨]. أي: من الإيمان والإخلاص)[(١)].

وكانوا ألفاً وأربعمائة. وقيل: ألفاً وخمسمائة. بايعوا جميعاً غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره[(٢)]. وبايعوا جميعاً على الموت في سبيل الله؛ فكافأهم الله على ذلك بإحلال رضوانه عليهم، وإنزال السكينة على قلوبهم.

وهذه - ورب العزة - هي أم المفاخر وغرة المناقب. فأي منقبة أعظم وأي مفخرة أتم مما ناله هؤلاء الأفاضل من رضوان الله سبحانه؟ فمن رضي عنه سبحانه فلا يضره قط غضب غاضب عليه كائناً من كان!

وهؤلاء كان فيهم خيار الآل والأصحاب، فعمهم جميعاً شرف الرضا عنهم، وإنزال السكينة عليهم.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٧٦).

فأين الشانئ لهم من هذا المضمار؟ وأي جرم جناه على نفسه بالوقوع في خير الخليقة بعد الأنبياء؟ فلم يزد على أن رفع على ناصيته علماً مناد بجهله ودال على خبثه وحقده!

❖ **وقال تعالى:**

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٧٤]

ووجه الاستدلال بهذه الآية على عدالة الآل والأصحاب: أن الله أخبر فيها عن المؤمنين المهاجرين من دار الشرك إلى دار الإسلام، المجاهدين للمشركين مع رسوله، والذين آووهم وحموهم ونصروهم من الأنصار بأنهم مستكملون للإيمان، قد وصلوا فيه المقام الأعلى، ونالوا منه الحظ الأسنى، وذلك أنه أكد إيمانهم بقوله سبحانه: ﴿ حَقّٗا ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ومن كان هذا مكانه وهذه درجته، كان بعيداً عن أسباب الجرح، متربعاً على هام العدالة، مستأثراً منها بمكان رفيع سامق.

يقول الزمخشري ﵀: (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ لأنهم صدَّقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن، ومفارقة الأهل، والانسلاخ من المال لأجل الدين، وليس بتكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل)[1].

فهذه بعض الآيات الدالة على عدالة الآل والأصحاب، وهي كما تراها واضحة في دلالاتها على المقصود من عدالة الآل والأصحاب، غير مفرقة بين أحد منهم في ذلك، فليُتأمل!

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٢٨).

فإن قال قائل: وأين ستذهب بالنصوص الأخرى من كتاب الله تعالى والتي فيها نوع انتقاد أو لوم؟

فنقول له: دونكها فإن فيها ما يرشد الحيران ويهدي التيهان، وأقول وبالله أستعين: حتى الآيات التي جاء فيها عتاب لهم أو لبعضهم شاهدة بعدالتهم، حيث غفر الله لهم ما عاتبهم فيه وتاب عليهم:

❖ **وقال تعالى:**

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٩]

وتأمل ختام العتاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وهل بعد مغفرة الله من شيء؟!

❖ **وقال تعالى:**

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

وتأمل ختام الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

وغير ذلك من الآيات الشاهدة بمغفرة الله لهم لما ارتكبوا من بعض المعاصي. على من أن المراد بعدالتهم جميعاً: عصمتهم من الكذب في حديث رسول الله، وليس معنى عدالتهم عصمتهم من المعاصي أو من السهو أو الغلط، فهذا لم يقل به أحد من أهل العلم، وحتى مع ارتكاب بعضهم لبعض الذنوب، فقد امتن الله عليهم بالتوبة والمغفرة لذنوبهم.

وما هذه المنة من ربهم إلا بيان لعباده - مؤمنهم وكافرهم - إلى قيام الساعة بعظم مكانة من اختارهم لصحبة سيد أنبيائه ورسله، وأن التجريح والقدح في تلك المكانة والعدالة إنما هو تجريح وقدح فيمن بوأهم تلك المكانة، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، نعوذ بالله من الخذلان[1]!!

قال الخطيب البغدادي ﷺ: (والأخبار في هذا المعنى تتسع وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع بتعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فهم على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية والخروج من باب التأويل فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك ورفع أقدارهم عنه، على أنه لو لم يرد من الله ﷻ ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين. هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء.

وذهبت طائفة من أهل البدع إلى أن حال الصحابة كانت مرضية إلى وقت الحروب التي ظهرت بينهم وسفك بعضهم دماء بعض، فصار أهل تلك الحروب ساقطي العدالة، ولما اختلطوا بأهل النزاهة وجب البحث عن أمور الرواة منهم وليس في أهل الدين والمتحققين بالعلم من يصرف إليهم خبر ما لا يحتمل نوعاً من التأويل وضرباً من الاجتهاد، فهم بمثابة المخالفين من الفقهاء المجتهدين في تأويل الأحكام لإشكال الأمر والتباسه، ويجب أن يكونوا على الأصل الذي قدمناه من حال العدالة والرضا إذ لم يثبت

---

(١) نقلاً عن كتاب السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام (٢/ ٧٨-٧٩).

ما يزيل ذلك عنهم.

أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى الهمذاني، ثنا صالح بن أحمد الحافظ قال: سمعت أبا جعفر أحمد بن عبدل يقول: سمعت أحمد بن محمد بن سليمان التستري يقول: سمعت أبا زرعه يقول: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة)[١].

فتأمل أخي المسلم كيف تفطن هؤلاء العلماء الأكياس لكيد هؤلاء الأنجاس، ووقفوا أمامهم سداً منيعاً، وجعلوا رمي الصحابة الكرام والآل العظام بالزندقة آية بينة على زندقة من رماهم بها، فردوا كيدهم في نحورهم!

ولولا هؤلاء العلماء الربانيين وأمثالهم ممن آتاهم الله بصيرة ثاقبة لضاعت معالم الدين، واندرست شعائر الإسلام على أيدي هؤلاء اللئام! فلله الحمد أولاً وآخراً.

---

(١) الكفاية في علم الرواية (١/ ٤٨-٤٩).

الآيات الواردة في فضائل الخلفاء الراشدين

إن الخلفاء الراشدين هم أفضل هذه الأمة بعد نبيها؛ لكمالهم في العلم والعدل والسياسة والسلطان، وإن كان بعضهم أكمل في ذلك من بعض؛ فأبو بكر وعمر أكمل في ذلك من عثمان وعلي، وبعدهم لم يكمل أحد في هذه الأمور إلا عمر بن عبد العزيز[١]؛ ولذلك أمر النبي ﷺ أمته بأن تتمسك بهديهم، وتقتفي آثارهم، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه؛ فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، إلا أنهما لم يذكرا الصلاة[٢].

وقد أثنى عليهم ربهم جل في علاه في أكثر من موطن في كتابه الكريم، سنذكر ما يسر الله ذكره:

أولاً: فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أبو بكر الصديق السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق، صاحب النبي ﷺ في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في جميع الأطوار، وضجيعه بعد

---

(١) منهاج السنة (٤/ ١٠٧).

(٢) مسند أحمد برقم (١٧١٨٤)، سنن أبي داود برقم (٤٦٠٧)، جامع الترمذي برقم (٢٦٧٦)، سنن ابن ماجه برقم (٤٣). وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٦٥).

الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، ولم تسم إلى ذروته همم أولي الأيد والأبصار، حيث يقول عالم الأسرار: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠] إلى غير ذلك من الآيات والآثار، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار، التي غدت كالشمس في الانتشار. وفضل كل من فاضل، وفاق كل من جادل وناضل، ونزل فيه ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠].

توحد الصديق في الأحوال بالتحقيق، واختار الاختيار من الله، دعاه إلى الطريق؛ فتجرد من الأموال والأعراض، وانتصب في قيام التوحيد للتهدف والأغراض، صار للمحن هدفاً، وللبلاء غرضاً، وزهد فيما عزله جوهراً كان أو عرضاً، تفرد بالحق عن الالتفات إلى الخلق[1].

فهلم أخي المسلم لترى مناقبه التي انفرد بها، فهي مسطرة في كتاب رب العزة إلى قيام الساعة، نعرج عليها على النحو التالي:

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٨-٢٩).

❖ وقال تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

[التوبة: ٤٠]

قال البغوي رحمه الله: (هذا إعلام من الله عز وجل أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدد والعُدد ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [التوبة: ٤٠] من مكة حين مكروا به، وأرادوا تبييته وهموا بقتله ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ [التوبة: ٤٠]. أي: هو أحد الاثنين. والاثنان: أحدهما رسول الله ﷺ، والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة:٤٠] وهو نقب في جبل ثور بمكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ [التوبة:٤٠] قال الشعبي رحمه الله: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه)[١].

ثم ساق بأسانيده: (وعن جميع بن عمير قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنهما فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض».

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: من قال: إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لإنكاره نص القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا يكون كافراً.

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٩٢-٢٩٣).

وقوله عز وجل: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] لم يكن حزن أبي بكر جبناً منه، وإنما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة.

وروي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر؟!» قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك؛ فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله! حتى استبرئ الغار؛ فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله فنزل، فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر.

وقال ثابت البناني رحمه الله: حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدثهم قال: نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار؛ فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا. فقال: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)[1].

فالحاصل: أن الآية فيها تزكية للصديق، من حيث إنه لم يكن الله سبحانه ليختار لنبيه رفيقاً إلا صالحاً براً أميناً، سيما والطلب يرصده عليه الصلاة والسلام.

❖ **وقال تعالى**:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

[الليل: ٧]

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات ما يلي:

أنها نزلت في شأن النخلة؛ فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رجلاً كان له نخيل ومنها نخلة فرعها في دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجل فدخل داره؛ فيأخذ

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٩٣).

التمرة من نخلته فتسقط التمرة فيأخذها صبيان الرجل الفقير؛ فينزل من نخلته فينزع التمرة من أيديهم، وإن أدخل أحدهم التمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه؛ فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة؛ فقال له النبي ﷺ: «اذهب». ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة فقال له: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة». فقال له: لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها، وإن لي لنخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجب إليَّ ثمرة من ثمرها. فذهب النبي ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فقال الرجل: يا رسول الله! إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتك إياها، أتعطيني ما أعطيته بها نخلة في الجنة؟ قال: «نعم». ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ولكلاهما نخل فقال له: أخبرك أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له: قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها. فسكت عنه الرجل. فقال له: أراك إذا بعتها. قال: لا. إلا أن أُعطى بها شيئاً ولا أظنني أعطاه. قال: وما مناك؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: لقد جئت بأمر عظيم، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة؟ ثم سكتا وأنشآ في كلام آخر ثم قال: أنا أعطيتك أربعين نخلة. فقال: أشهد لي إن كنت صادقاً. فأمر بأناس فدعاهم فقال: اشهدوا إني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان بن فلان. ثم قال: ما تقول؟ فقال صاحب النخلة: قد رضيت. ثم قال: بعد ليس بيني وبينك بيع لم نفترق. فقال له: قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة. فقال صاحب النخلة: قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد. قال: تعطينيها على ساق. ثم مكث ساعة ثم قال: هي لك على ساق، وأوقف له شهوداً وعدَّ له أربعين نخلة على ساق؛ فتفرقا فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك؛ فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له: «النخلة لك ولعيالك».

قال عكرمة رحمه الله: قال ابن عباس رضي الله عنه: فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ ﴾ [الليل: ١٠] إلى آخر السورة. هكذا رواه ابن أبي حاتم)[١].

وذكر ابن جرير: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذكر الخبر في ذلك فقال: (حدثني هارون بن إدريس الأصم قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد بن المحاربي قال: ثنا محمد بن إسحاق عن مجاهد بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن. فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك، ويدفعون عنك. فقال: أي أبتِ إنما أريد – أظنه قال – ما عند الله. قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ ﴾ [الليل: ٧])[٢].

وقال القرطبي رحمه الله: (قال عطاء: وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السورة نزلت في أبي الدحداح رضي الله عنه، في النخلة التي اشتراها بحائط له، فيما ذكر الثعلبي عن عطاء. وقال القشيري عن ابن عباس: بأربعين نخلة ولم يسم الرجل.

قال عطاء رحمه الله: كان لرجل من الأنصار نخلة يسقط من بلحها في دار جار له فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تبيعها بنخلة من الجنة»؟ فأبى فخرج، فلقيه أبو الدحداح فقال: هل لك أن تبيعها بـ(حسنى) حائط له. فقال: هي لك. فأتى أبو

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٣٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٠-٥٢١).

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٢٢١).

الدحداح إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! اشتراها مني بنخلة من الجنة. قال: «نعم والذي نفسي بيده». فقال: هي لك يا رسول الله. فدعا النبي ﷺ جار الأنصاري فقال: «خذها» فنزلت ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ ﴾ [الليل: ١]... إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح، وصاحب النخلة. ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ ﴾ [الليل: ٥] يعني: أبا الدحداح ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ ﴾ [الليل: ٦] أي: بالثواب ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ ﴾ [الليل: ٧] أي: بالثواب ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ ﴾ [الليل: ١٠] يعني: جهنم ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ ﴾ [الليل: ١١] أي: مات. إلى قوله: ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ﴾ [الليل: ١٥] يعني: بذلك الخزرجي، وكان منافقاً فمات على نفاقه ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ﴾ [الليل: ١٧] يعني: أبا الدحداح ﴿ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ ﴾ [الليل: ١٨] في ثمن تلك النخلة ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ ﴾ [الليل: ١٩] يكافئه عليها يعني أبا الدحداح ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾ [الليل: ٢١] إذا أدخله الله الجنة)[١].

والقول الراجح في سبب نزولها هو قول من قال: إنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك لأمور عدة:

منها: أن الإمام ابن كثير رحمه الله قال عقب ذكره لحديث النخلة: (وهو حديث غريب جداً)[٢].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله بعد ذكره حديث أبي الدحداح الذي روي أنه سبب نزول الآيات: (والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم)[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢١).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٠).

ثم إنه قد ورد في حديث النخلة: أن السورة نزلت إلى نهايتها في صاحب النخلة، مع أن هناك آيات في السورة ذكر بعض المفسرين الإجماع على نزولها في أبي بكر، وهي قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ٢١]، فقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك)[1].

ويبدو أن حديث النخلة هو حديث أبي الدحداح وإن لم يصرح الراوي بذكر اسمه؛ فيكون الجواب عليهم واحداً، والله تعالى أعلم.

قال القرطبي رحمه الله: (وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ٢١] هو أبو بكر رضي الله عنه)[2].

وقد روى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: عذب المشركون بلالاً وبلال يقول: أحدٌ أحد. فمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أحد - يعني الله تعالى - ينجيك». ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر! إن بلالاً يعذب في الله». فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إلى منزله فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف فقال له: أتبيعني بلالاً؟ قال: نعم. فاشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده. فنزلت ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ ﴾ [الليل: ١٩] أي: عند أبي بكر ﴿ مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ [النحل: ٥٣] أي: من يد ومنة ﴿ تُجْزَىٰ ﴾ [غافر: ١٧] بل ﴿ ٱبْتِغَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] بما فعل ﴿ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل: ٢٠].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٨).

وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبي بن خلف بلالاً ببردة وعشر أواق فأعتقه لله فنزلت: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل: ٤].

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبا بكر: أتبيعه؟ فقال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركاً فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله فأبى، فباعه أبو بكر به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزلت ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢][1].

قال ابن كثير رحمه الله: (ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها العموم وهو قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾ [الليل: ١٩] ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صدِّيقاً تقياً كريماً جواداً بذَّالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة.

فإن كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ٢١]. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته

---

(١) المصدر السابق (٢٠/ ٨٩).

خزنة الجنة يا عبد الله! هذا خير. فقال أبو بكر: يا رسول الله! ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم»[(١)] [(٢)].

ثانياً: فضائل عمر بن الخطاب

ثاني القوم عمر الفاروق، ذو المقام الثابت المأنوق، أعلن الله تعالى به دعوة الصادق المصدوق، وفرق به بين الفصل والهزل، وأيد بما قوَّاه به من لوامع الطول، ومهد له من منائح الفضل شواهد التوحيد، وبدد به مواد التنديد، فظهرت الدعوة، ورسخت الكلمة، فجمع الله تعالى بما منحه من الصولة ما نشأت لهم من الدولة، فعلت بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت، وتثبتوا في أحوالهم بعد تهافت، غلب كيد المشركين بما ألزم قلبه من حق اليقين، لا يلتفت إلى كثرتهم وتواطيهم، ولا يكترث لممانعتهم وتعاطيهم، اتكالاً على من هو منشئهم وكافيهم، واستنصاراً بمن هو قاصمهم وشافيهم، محتملاً لما احتمل الرسول ومصطبراً على المكاره لما يُؤمل من الوصول، ومفارقاً لمن اختار التنعم والترفيه، ومعانقاً لما كُلِّف من التشمير والتوجيه، المخصوص من بين الصحابة بالمعارضة للمبطلين، والموافقة في الأحكام لرب العالمين، السكينة تنطق على لسانه، والحق يجري الحكمة عن بيانه، كان للحق مائلاً، وبالحق صائلاً، وللأثقال حاملاً، ولم يخف دون الله طائلاً[(٣)].

(١) صحيح البخاري برقم (٢٦٨٦)، صحيح مسلم برقم (١٠٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٢).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٨).

❖ **قال تعالى:**

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾ [النساء: ٨٣]

عن ابن عباس ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قلت لرسول الله ﷺ: إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «نعم. إن شئت». فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده. فقلت: يا رسول الله! إنما كنت في الغرفة تسعاً وعشرين. قال: إن الشهر يكون تسعاً وعشرين. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله آية التخيير[1].

ومعنى الآية كما قال البغوي ﷺ: (وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيفشونه ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ؛ فيضعفون به قلوب المؤمنين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ ﴾ [النساء: ٨٣] يعني: المنافقين ﴿ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ ﴾ [النساء: ٨٣] أي: الفتح والغنيمة ﴿ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ ﴾ [النساء: ٨٣] القتل والهزيمة ﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ ﴾ [النساء: ٨٣] أشاعوه وأفشوه ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾

(١) رواه مسلم برقم (١٤٧٩).

[النساء: ٨٣] أي: لو لم يحدثوا به حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به ﴿ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء: ٨٣] أي: ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه وهم العلماء. أي: علموا ما ينبغي أن يكتم وما ينبغي أن يفشي. والاستنباط: الاستخراج. يقال: استنبط الماء: إذا استخرجه. وقال عكرمة: يستنبطونه. أي: يحرصون عليه ويسألون عنه، وقال الضحاك: يتبعونه يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين لو ردوه إلى الرسول ﷺ وإلى ذوي الرأي والعلم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. أي: يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ [النساء: ٨٣] كلكم ﴿ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [البقرة: ٨٣]، فإن قيل: كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان؟ قيل: هو راجع إلى ما قبله. قيل: معناه أذاعوا به إلا قليلاً لم يفشه. عُني بالقليل: المؤمنين. وهذا قول الكلبي واختيار الفراء، وقال: لأن علم السر إذا ظهر علمه المستنبط وغيره والإذاعة قد تكون في بعض دون بعض. وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً. ثم قوله: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ [النساء: ٨٣] كلام تام.

وقيل: فضل الله: الإسلام. ورحمته القرآن. يقول: لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً وهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول ﷺ ونزول القرآن مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل وجماعة سواهما.

وفي الآية دليل على جواز القياس؛ فإن من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة في النصوص)[1].

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٥٤).

فسبب نزول الآية هو الإشاعة بأن النبي ﷺ طلق أزواجه كما في الحديث المتقدم.

وذكر بعضهم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (هذا في الإخبار إذا غزت سرية من المسلمين خبر الناس عنها فقالوا: أصاب المسلمين من عدوهم كذاو كذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبي ﷺ هو يخبرهم به. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ أعلنوه وأفشوه. ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾، حتى يكون هو الذي يخبرهم به ﴿ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] أولي الفقه في الدين والعقل)(١).

ويترجح القول الأول لكون الحديث الذي ذكر سبب نزول الآية في الصحيح، بخلاف دليل القول الثاني فإنه لم يبلغ درجته.

وحتى على القول الثاني فإن عمر رضي الله عنه داخل في عموم الآية، فهو من أولي الفقه في الدين والعقل والأمر، وقد ولي إمرة المسلمين وصار خليفة عليهم جميعاً بعد وفاة الصديق رضي الله عنه.

❖ **قال تعالى:**

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه – وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب – فقال عمر: فقلت لأعلمن ذلك اليوم. قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟! فقلت: ما لي وما لك يا بن الخطاب! عليك بعيبتك. قال: فدخلت على حفصة بنت عمر

(١) الدر المنثور (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

فقلت لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ! والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ فبكت أشد البكاء. فقال: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أسكفة المشربة مدلٍ رجليه على نقير من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت: يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلي فلم يقل شيئاً. ثم قلت: يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلي فلم يقل شيئاً. ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إلي أن ارقه. فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست. فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق - قال - فابتدرت عيناي قال: «ما يبكيك يا بن الخطاب»؟ قلت: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك. فقال: «يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟!». قلت: بلى. قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب. فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله عز وجل مصدق قولي فنزلت هذه الآية: آية التخيير: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥][1].

وهناك عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٤٧٩).

منها: أنهم الأنبياء صلوات الله عليهم، وهو قول قتادة وسفيان.

ومنها: أنهم خيار المؤمنين، وهو قول الضحاك.

ومنها: أنهم أبو بكر وعمر. وهو قول مجاهد والضحاك وغيرهم[١].

ومنها: أنه علي بن أبي طالب[٢].

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين قال: أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى علي قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [التحريم: ٤] قال: «هو علي بن أبي طالب»)[٣].

والقول الراجح في صالح المؤمنين وإن كان اللفظ عاماً: أنهم أبو بكر وعمر، وخيار المؤمنين وأولهم دخولاً عثمان وعلي ﵄، كما أن اللفظ يشمل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما ما رواه ابن أبي حاتم أن رسول الله أخبر أن المراد بصالح المؤمنين علي بن أبي طالب فلا يصح، فقد قال ابن كثير عقب ذكره لهذه الحديث: (إسناده ضعيف، وهو منكر جداً)[٤].

ثم ساق بعده ما رواه البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت هذه الآية[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٠).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٦٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٠).

(٥) المصدر السابق. والحديث في صحيح البخاري برقم (٣٩٣).

ثالثاً: فضائل عثمان بن عفان

ثالث القوم القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلي إلى القبلتين، هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، غالب أحواله الكرم والحياء، والحذر والرجاء، حظه من النهار الجود والصيام، ومن الليل السجود والقيام، مبشر بالبلوى، ومنعَّم بالنجوى(١).

❖ **قال تعالى:**

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: ٩]

يقول ابن كثير رحمه الله: (يقول عز وجل: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ **لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا** ﴾ [الزمر: ٩]، أي في حال سجوده وفي حال قيامه. ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة وليس هو القيام وحده. كما ذهب إليه آخرون.

وقال الثوري رحمه الله: عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسدي وابن زيد: آناء الليل جوف الليل.

وقال الثوري عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن وقتادة: آناء الليل أوله وأوسطه وآخره.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٥٥).

وقوله تعالى: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩] أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩] فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو وأمنه الذي يخافه»[1]... ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩] أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلم)[2].

وقال السيوطي رحمه الله: (وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه تلا هذه الآية ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩] فقال: ذاك عثمان بن عفان. وفي لفظ: نزلت في عثمان بن عفان.

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا ﴾ [الزمر: ٩] قال: نزلت في عمار بن ياسر.

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه)[3].

وقال صاحب المحرر الوجيز رحمه الله: (وحكى النقاش أن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا: آمنت! قال: نعم. فنزلت

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨).

(٣) الدر المنثور (٧/ ٢١٤).

فيـه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] فلـما سمعها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧] إلى قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ١٨])[١].

وإن أقوى الأقوال فيما يظهر: هو قول من قال أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال صاحب التحرير والتنوير رحمه الله: (قال بعض المفسرين: أريد بـ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ﴾ أبو بكر. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: أبو ذر. وقيل: ابن مسعود. وهي روايات ضعيفة، ولا جرم أن هؤلاء المعدودين هم من أحق من تصدق عليه هذه الصلة، فهي شاملة لهم، ولكن محمل الموصول في الآية على تعميم كل من يصدق عليه معنى الصلة)[٢].

وقد ذكر أن الآثار المروية في جميعهم ضعيفة إلا ما روي عن عثمان رضي الله عنه، فلم يذكره بضعف على أن جميعهم داخلون فيها بعموم لفظها قبل غيرهم، وجميع من كان على مثل هديهم داخل فيها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل سبب نزول الآية دخولاً أولياً.

قال ابن كثير رحمه الله: (وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضي الله تعالى عنه)[٣].

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨).

❖ **قال تعالى:**

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٨]

أي: اجتنبوا عبادة كل ما عبد من دون الله من شيء.

قال القرطبي رحمه الله: (قال الأخفش: الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة. وقد تقدم. ﴿ اجْتَنَبُوا ﴾. أي: تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها.

قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان.

و«أن» في موضع نصب بدلاً من الطاغوت تقديره: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت. ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾. أي: رجعوا إلى عبادته وطاعته ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العقبى... وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم)[1].

قال ابن كثير رحمه الله: (والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) [2].

وقال ابن عاشور رحمه الله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزل قوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩).

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية، في عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، جاءوا إلى أبي بكر الصديق حين أسلم فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا)(١).

رابعاً: فضائل علي بن أبي طالب

رابع القوم محب المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والعلوم، ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات، راية المهتدين، ونور المطيعين، وولي المتقين، وإمام العادلين، أقدمهم إجابة وإيماناً، وأقومهم قضية وإيقاناً، وأعظمهم حلماً، وأوفرهم علماً، علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢).

❖ **قال تعالى:**

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: ١٢]

قال البغوي رحمه الله: (﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه. وقيل: على حب الله عز وجل. ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيراً لا مال له. ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له. ﴿وَأَسِيرًا ۝٨﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة)(٣).

وقال القرطبي رحمه الله: (قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يُحسن إليهم، وإن أسراهم

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٧٧).

(٢) انظر: حلية الأولياء (١/ ٦١).

(٣) تفسير البغوي (٤/ ٤٢٨).

يومئذ لأهل الشرك. وقال عكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير المرأة، يدل عليه قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان»[١] أي: أسيرات)[٢].

وقال الشوكاني رحمه الله: (قال سعيد بن جبير: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف في حق الأسير الكافر. وقال غيره: بل هي محكمة، وإطعام المسكين واليتيم على التنوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام)[٣].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير الذي قد وصفت صفته، واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عم الخبر عنهم أنهم يطعمونهم، فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له. وأما قول من قال: لم يكن لهم أسير يومئذ إلا أهل الشرك. فإن ذلك وإن كان كذلك فلم يُخصص بالخبر الموفون بالنذر يومئذ، وإنما هو خبر من الله عن كل من كانت هذه صفته يومئذ وبعده إلى يوم القيامة، وكذلك الأسير معني به أسير المشركين والمسلمين يومئذ بعد ذلك إلى قيام الساعة)[٤].

وقال البغوي رحمه الله: (واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل رحمه الله: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وروي عن مجاهد وعطاء عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير فقبض الشعير فطحن ثلثه، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه، فلما تم إنضاجه أتى مسكين فسأل فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل

(١) رواه الترمذي برقم (١١٦٣)، وابن ماجه برقم (١٨٥١).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٩).
(٣) فتح القدير (٥/ ٤٨٨).
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٢١٠).

فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك)[١].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﵄ في قوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ الآية. قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ[٢].

وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وأبو عبيدة ﵃. ذكره الماوردي[٣].

ولا شك أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، غير أن من قيل أنها نزلت في حقه مقدم بالدخول على غيره ويكون الباقون تبعاً له؛ لكون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولو قلنا بغير ذلك لتعطل العمل بكثير من الآيات؛ لكون القرآن نزل منجَّماً بحسب الوقائع والأحداث.

❖ **قال تعالى:**

﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٤** ﴾ [البقرة: ٢٧٤]

قال البغوي ﵀: (روي عن مجاهد عن ابن عباس ﵄ قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب ﵁ كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانيةً.

وعن الضحاك عن ابن عباس ﵄ قال: لما نزلت: ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٣] بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٤٢٨).

(٢) الدر المنثور (٨/ ٣٧١).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١١٦).

الصفة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر؛ فأنزل الله تعالى فيها: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] الآية. عني بالنهار، علانية: صدقة عبد الرحمن بن عوف. وبالليل سراً: صدقة علي رضي الله عنه.

وقال أبو الدرداء ومكحول والأوزاعي: نزلت في الذين يرتبطون الخيل للجهاد، فإنها تعلف ليلاً ونهاراً سراً وعلانية)[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: (هذا - أي: في الآية - مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى أن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح - وفي رواية عام حجة الوداع - «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»[٢].

وقال الإمام أحمد: عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري يحدث عن أبي مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة. أخرجاه من حديث شعبة به»[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] في أصحاب الخيل»[٤].

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٦)، صحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٣) مسند أحمد برقم (١٧١٢٣). ورواه البخاري برقم (٥٠٣٦)، ومسلم برقم (١٠٠٢).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٢).

وقال حنش الصنعاني: عن ابن عباس في هذه الآية قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله. رواه ابن أبي حاتم[١].

ثم قال: وكذا روي عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول، وروى ابن أبي حاتم عن ابن جبير عن أبيه قال: كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهماً ليلاً ودرهماً نهاراً ودرهماً سراً ودرهماً علانيةً فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤][٢]. وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف، ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب.

وقوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٦٢] أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات. ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢] تقدم تفسيره)[٣].

وقال الشوكاني ﷺ: (وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة)[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٤) فتح القدير (١/ ٤٤٣)

فضائل من شهد بدراً

❖ قال تعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣]

قال الزمخشري في تفسيره: (قوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ الخطاب لمشركي قريش. ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾ [آل عمران: ١٣] يوم بدر، ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١٣] وهم محمد ﷺ وأصحابه. ﴿ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ هم كفار قريش ومن معهم. ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدهم بالملائكة. والدليل عليه قراءة نافع: ﴿ تَرَوْنَهُمْ ﴾ بالتاء. أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ قلت: قُلِّلوا أولاً في أعينهم حتى اجترءوا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين.

ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال: قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ بعد ما كُلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ولذلك وصف ضعفهم بالقلة؛ لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم، وقراءة نافع لا تساعد عليه.

وقرأ ابن مصرف: "يرونهم" على البناء للمفعول بالياء والتاء. أي: يُريهم الله ذلك بقدرته. وقرئ: (فئة تقاتل وأخرى كافرة) بالجر على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في (التقتا). ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ كما أيّد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو)[1].

❖ **قال تعالى:**

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]

قال ابن كثير رحمه الله: (عن عامر الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [آل عمران: ١٢٥]. قال: فبلغت كرزاً الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمين بالخمسة.

وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]؟ فالجواب: أن التنصيص على الألف ـ هاهنا ـ لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛

(١) الكشاف (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

لقوله: ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] بمعنى يَرْدَفُهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة: أمد الله المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف)[١].

❖ **قال تعالى:**

﴿ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١١-١٢]

قال ابن كثير رحمه الله: (عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح... وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان... ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر! هذا جبريل على ثناياه النقع». ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥][٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١]... عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٥٩٤).

المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاظم ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماءً حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون وملئوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبت به الأقدام، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام...

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه.

وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢] وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وآزروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم – يعني المشركين – يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم.

وقوله: ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢] أي: سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي. وقوله: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢] أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم.

وفي مغازي الأموي: أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول: «نفلق

هاماً»، فيقول أبو بكر:

مــــن رجــــال أعــــزة علينـــا وهــــم كـــانوا أعــــق وأظلـــما

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضي الله عنه إنشاد آخره، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩]. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أُحرق به)[1].

❖ **قال تعالى:**

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال: ١٧]

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش: فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم ولكن الله قتلهم، وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين إذ كان جل ثناؤه هو مسبب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم، ففي ذلك أدل دليل على فساد قول المنكرين: أن يكون لله في أفعال خلقه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قوله لنبيه عليه السلام: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٧] فأضاف الرمي إلى نبي الله ثم نفاه عنه وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرمي به إلى الذين رموا به من المشركين والمسبب الرمية لرسوله)[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رفع رسول الله ﷺ يده يوم بدر فقال: يا رب إن تهلك

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٣-٢٩٤) بتصرف.

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٤).

هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً! فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب! فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين»[(١)].

❖ **وقال تعالى:**

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾ [الأنفال: ٤١]

يقول ابن جرير ؒ في تفسيره: (أي: أيقنوا أيها المؤمنون أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدقوا به إن كنتم أقررتم بوحدانية الله وبما أنزل الله على عبده محمد ﷺ يوم فرق بين الحق والباطل ببدر؛ فأبان بلج المؤمنين وظهورهم على عدوهم، وذلك ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المؤمنين وجمع المشركين، والله على إهلاك الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين وعلى غير ذلك مما يشاء ﴿ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ لا يمتنع عليه شيء أراده)[(٢)].

قال ابن عباس ﭭ: قوله: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يعني بـ ﴿ الْفُرْقَانُ ﴾ يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل.

وعن عروة بن الزبير ﭭ قال: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة مضت في شهر رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله يومئذ المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٥).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٨).

(٣) المصدر السابق.

❖ **قال تعالى:**

﴿ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣]

قال ابن جرير رحمه الله **في تفسيره:** (يقول تعالى ذكره: وإن الله يا محمد سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه؛ إذ يريك الله عدوك وعدوهم: ﴿ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ ﴾ [الأنفال: ٤٣]. يقول: يريكهم في نومك قليلاً فتخبرهم بذلك حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً لفشل أصحابك فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا؛ إنه عليم بما تكنه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب...

عن مجاهد رحمه الله قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم)[1].

❖ **وقال تعالى:**

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨]

قال ابن جرير رحمه الله **في تفسيره:** (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٢).

جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته. فقال الرجل: يا سراقة! تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨] وذلك حين رأى الملائكة...

وعن قتادة رحمه الله قال: ذُكر لنا أنه جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يَدَيْ له بالملائكة. وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. وكذب والله عدو الله ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك(١).

❖ **قال تعالى:**

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٩]

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: (يقول الله تعالى: أي: ما كان لنبي أن يحتبس كافراً قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن. حتى يبالغ في قتل المشركين فيها ويقهرهم غلبة وقسراً.

ثم يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنفال: ٦٧]. أي: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطعمها. ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَۗ ﴾ [الأنفال: ٦٧]. والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته بقتلكم

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٩).

إياهم وإثخانكم في الأرض.

يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم، وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. يقول: إن أنتم أردتم الآخرة لم يغلبكم عدوكم؛ لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب وأنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] في تدبيره أمر خلقه.

ثم أخبر سبحانه أنه لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله مُحل لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم؛ حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم.

ثم قال لهم: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٩] من أموال المشركين ﴿ حَلَٰلًا ﴾ [البقرة: ١٦٨] بإحلاله لكم ﴿ طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة: ٨٨]. يقول: وخافوا الله أن تعودوا أن تفعلوا في دينكم شيئاً بعد هذه من قبل أن يعهد فيه إليكم كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة وأخذتموها من قبل أن يُحلا لكم)[1].

إن هذه الآيات تبين بجلاء عناية الله بالمؤمنين الذين شهدوا مع رسوله وقعة بدر، حيث أنه سبحانه لطف بهم ونصرهم، وأنزل عليهم من السماء ماءً طهرهم به من الحدث الأصغر والأكبر، وثبَّت به أقدامهم، فلم تزل عند ملاقاة المشركين ومناجزتهم، ثم قلَّل أهل الشرك في أعينهم حتى إنهم ليرونهم مابين السبعين والمائة وهم مابين التسعمائة والألف؛ ليجرئهم عليهم، وكثَّرهم في أعين المشركين حتى إنهم ليرونهم أضعافهم؛ ليجبنوا ويخافوا من ملاقاتهم، ثم أمدهم الله بملائكته تثبتهم وتقاتل معهم وتآزرهم،

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٨) وما بعدها بتصرف.

وقذف في قلوب عدوهم الرعب منهم؛ فسلطهم عليهم فجعلوا يقتلونهم كيف شاءوا، ويأسرونهم كيف شاءوا، كل ذلك بأمر الله وتوفيقه، فلما أظهرهم الله على عدوه وعدوهم ونصرهم نصراً مؤزراً حدثت منهم زلة بأخذ الفداء من الأسرى قبل الإذن لهم بذلك، فعفا الله عنهم لما سبق لهم عنده في اللوح المحفوظ. وقيل: في القرآن من إحلال الغنيمة لهم وإكرامهم على من دونهم، وأن من شهد منهم هذه الوقعة لا يعذب قضاءً من عند الله.

وقد أخبر النبي ﷺ عنهم أنهم لن يلجوا النار، وأنهم أفضل المسلمين فقال ﷺ: «لن يلج النار أحد شهد بدراً والحديبية»(١).

وعن رفاعة بن رافع الزرقي وكان من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين». أو كلمة نحوها. قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»(٢).

---

(١) انظر: صحيح مسلم برقم (٢٤٩٥)، جامع الترمذي برقم (٣٨٦٤)، سنن ابن ماجه برقم (٤٢٨١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٧٧١).

فضائل من شهد الحديبية

❖ قال تعالى:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨]

يخبر ﷻ في هذه الآية أنه قد رضي عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على مناجزة قريش وعلى ألا يفروا، وكان ذلك تحت شجرة، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم من صدق وإخلاص وسمع وطاعة؛ فأنزل على قلوبهم الطمأنينة والصبر، وآتاهم فتحاً قريباً هو ما كان بينهم وبين قريش من صلح ثم فتح خيبر ثم فتح مكة وما بعده من الفتوح إلى يوم القيامة. وكان عددهم ألف وأربعمائة رجل من المهاجرين والأنصار وبعض الأعراب[١].

وبما أنه سبحانه أخبر أنه قد رضي عنهم فإنه لن يعذبهم؛ ولذلك صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لن يلج النار أحد شهد بدراً أو بيعة الرضوان»[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).

(٢) صححه الألباني في الجامع الصغير برقم (٩٣٥٨).

❖ قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤]

قال ابن كثير رحمه الله: (قال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم. وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الفتح: ٤]، أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال جلت عظمته: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء: ١٧])[1].

❖ وقال تعالى:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح: ٥]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] مرجعه من الحديبية. قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله! لقد بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ خَٰلِدِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٥).

فِيهَا ﴾ [البقرة: ١٦٢] أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الفتح: ٥] أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر. ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح: ٥]، كقوله جل وعلا: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران: ١٨٥][(١)].

❖ **وقال تعالى:**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠]

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ [الفتح: ١٠] بالحديبية من أصحابك على أن لا يفروا عند لقاء العدو ولا يولوهم الأدبار ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠]، يقول: إنما يبايعون بيعتهم إياك الله؛ لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك... وفي قوله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] وجهان من التأويل:

أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة؛ لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ.

والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ؛ لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدو.

وقوله ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح: ١٠] يقول تعالى ذكره: فمن نكث بيعته إياك يا محمد ونقضها فلم ينصرك على أعدائك وخالف ما وعد ربه ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح: ١٠]. يقول: فإنما ينقض بيعته لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضر بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها، فأما رسول الله ﷺ فإن الله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٥). والحديث في صحيح البخاري برقم (٣٩٣٩) مختصراً، جامع الترمذي برقم (٣٢٦٣).

تبارك وتعالى ناصره على أعدائه نكث الناكث منهم أو وفى بيعته.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠] الآية. يقول تعالى ذكره: ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه ﷺ على أعدائه. ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠]. يقول: فسيعطيه الله ثواباً عظيماً، وذلك أن يدخله الجنة جزاءً له على وفائه بما عاهد عليه الله ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأس بالمؤكدة من الأيمان)[1].

وقد علم الله أنهم لن ينكثوا بيعتهم بل سيوفون بها، ولذلك أعلم نبيه فبشرهم أنه لن يدخل النار ممن بايع هذه البيعة أحد، فقال ﷺ مبشراً لهم: «لن يلج النار أحد شهد بدراً أو بيعة الرضوان»[2].

❖ **قال تعالى:**

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح: ٢٠]

وعد المؤمنين الذين آمنوا برسوله ونصروه وبذلوا دونه الغالي والنفيس وبايعوه بيعة الرضوان بالنصر على الأعداء وغنم ما يملكون من متاع، وأنه نصر مستمر إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح:٢٠] يعني: خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ [الفتح:٢٠].

قال قتادة ﷺ: عن بيوتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر وكانت خيبر في ذلك الوجه.

قال ابن جرير ﷺ: (﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٠] يقول: وليكون كفه تعالى

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ٧٦).

(٢) تقدم تخريجه.

ذكره أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به، فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه)[1].

قال: (﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفتح: ٢٠]. يقول: ويسددكم أيها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه؛ فيبينه لكم وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم فتتوكلوا عليه في جميعها؛ ليحوطكم حياطته إياكم في مسيركم إلى مكة مع رسول الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم إذ وثقتم في مسيركم هذا)[2].

❖ **وقال تعالى:**

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح: ٢١]

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (عن قتادة: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ [الفتح: ٢١] قال: بلغنا أنها مكة. وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقول أنه لا يقال لقوم لم يقدروا على هذه المدينة إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها.

فإذا كان ذلك كذلك وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية؛ عُلم أن المعني بقوله: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ [الفتح: ٢١] غيرها؛ وأنها هي التي قد عالجها ورامها فتعذرت، فكانت مكة وأهلها كذلك. وأخبر الله تعالى ذكره نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها وأنه فاتحها عليهم وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء ذا قدرة لا يتعذر عليه شيء

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ٩٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٦/ ٩١).

شاءه)[1].

❖ وقال تعالى:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح: ٢٦]

يخبر سبحانه عن المشركين وحمية الجاهلية وأنفتها التي مازالت متجذرة في قلوبهم وذلك حين أبو أن يكتبوا في كتاب الصلح: (بسم الله الرحمن الرحيم) وحين أبوا أن يقروا كلمة: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) في صلح الحديبية: فأنزل الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين وهي الطمأنينة والرضا والتسليم، وألزمهم قول (لا إله إلا الله) التي يتقون بها النار وكانوا أحق بها من الكفار، وأهلها دونهم[2].

والمتأمل في الآيات التي ذكرت صلح الحديبية يجد أن الله ﷻ قد لطف برسوله ﷺ وصحابته أيما لطف؛ حيث إنه أنزل عليهم السكينة والصبر والرحمة وزادهم إيماناً إلى إيمانهم، وحمى ذريتهم وأموالهم في غيبتهم من اليهود، وحماهم هم أنفسهم من المشركين، وحين استولت حمية الجاهلية وأنفتها على قلوب المشركين أنزل الله على قلوبهم الطمأنينة والسكينة، وحكم بأنهم أحق بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وأهلها دون الكفار، ثم وفقهم للوفاء بشروط بيعة الرضوان، ووعد على ذلك الأجر العظيم في الجنة، ثم زادهم من فضله حين حل عليهم رضوانه فأخبرهم رسوله ﷺ عند ذلك «أنهم خير أهل الأرض» و«أنه لن يدخل أحد منهم النار»[3].

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ٩٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٠٤).

(٣) تقدم تخريجه.

فضائل مسلمة الفتح ومن بعدهم من المسلمين

❖ **قال تعالى:**

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد: ١٠]

قال القرطبي رحمه الله: (فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أمولكم وهي صائرة إلى الله تعالى؟! فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق.

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح: فتح مكة. وقال الشعبي والزهري: فتح الحديبية.

قال قتادة رحمه الله: كانا قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كانت القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف. أي: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف لدلالة الكلام عليه.

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين أشق والأجر على قدر النصب، والله أعلم)[١].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٢٠٥).

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وذهب البعض الآخر من أهل العلم إلى أن المراد بالفتح في هذه الآية: هو صلح الحديبية. فعن عامر قال: فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. يقول تعالى ذكره: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد: ١٠].

وعنه قال: فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية، وأنزلت: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ [الحديد: ١٠] إلى ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٤] فقالوا: يا رسول الله فتح هو؟ قال: «نعم. عظيم»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ عام الحديبية: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم. قلنا: من هم يا رسول الله أقريش هم؟ قال: لا ولكن أهل اليمن، أرق أفئدة، وألين قلوباً. فقلنا: هم خير منا يا رسول الله؟ فقال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه، ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ [الحديد: ١٠] الآية إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٤]»)[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»[(٣)].

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح

---

(١) انظر: صحيح البخاري برقم (٣٠١١)، صحيح مسلم برقم (١٧٨٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢٠).

(٣) رواه أحمد برقم (١٣٨٣٩).

مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صبأنا.. صبأنا. فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»(١).

والقول الراجح: هو أن المراد بالفتح هو الحديبية؛ لحديث عامر وفيه: أنهم سألوا النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم». وهو ترجيح ابن جرير الطبري رحمه الله فقد قال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: معنى ذلك لا يستوي منكم أيها الناس من أنفق في سبيل الله من قبل فتح الحديبية للذي ذكرنا من الخبر عن رسول الله ﷺ الذي رويناه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقاتل المشركين بمن أنفق بعد ذلك وقاتل، وترك ذكر من أنفق بعد ذلك وقاتل استغناءً بدلالة الكلام الذي ذُكر عليه من ذكره. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: ١٠] يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين أنفقوا في سبيل الله من قبل فتح الحديبية وقاتلوا المشركين أعظم درجة في الجنة عند الله من الذين أنفقوا من بعد ذلك وقاتلوا)(٢).

وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإنه قال: (المراد بالفتح هنا: صلح الحديبية. ولهذا سئل النبي ﷺ أو فتح هو؟ فقال: «نعم»)(٣).

قال القرطبي رحمه الله: (وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق، والأجر على قدر

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤٧٠)، صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٧/ ٢٢١).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٦).

النصب، والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه لأنه أول من أسلم.

وعن ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي ﷺ، وأبو بكر؛ ولأنه أول من أنفق على نبي الله ﷺ.

وعن ابن عمر قال: «كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال: يا نبي الله! مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال؟ فقال قد أنفق علي ماله قبل الفتح. قال: فإن الله يقول لك أقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربي؟ إني عن ربي لراض! إن عن ربي لراض! إني عن ربي لراض! قال: فإن الله يقول لك: قد رضيت عنك كما أنت عني راض، فبكى أبو بكر. فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثك يا محمد بالحق لقد تخللت حملة العرش بالعبي منذ تخلل صاحبك هذا بالعباءة»[1]. ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، واقروا له بالتقدم والسبق.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبي ﷺ، وصلى أبو بكر وثلَّث عمر، فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة.

---

(١) رواه أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣٤٩)، والبغوي في تفسيره بسنده (٨/ ٣٤).

فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

الرابعة: التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة ﵂: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم»[١]. وأعظم المنازل مرتبة. الصلاة وقد قال ﷺ في مرضه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[٢]. الحديث: «وقال: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمكما أكبركما»[٣] من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدم.

وفهم منه البخاري وغيره من العلماء: أنه أراد كبر المنزلة، وكما قال ﷺ: «الولاء للكبر». ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقاً، وراعاه الشافعي وأبو حنيفة، وهو أحق بالمراعاة؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسن في خيرين قدم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين فمن قدم في الدين قدم في الدنيا.

وفي الآثار: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[٤] ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه»[٥].

وأنشدوا:

يا عائباً للشيوخ من أشر   داخله في الصبا ومن بذخ
اذكر إذا شئت أن تعيرهم   جدك واذكر أباك يا بن أخ

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٨٤٢).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٣٣)، ومسلم برقم (٤١٨).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٦٩٣)، ومسلم برقم (٦٧٤).

(٤) رواه أحمد برقم (٢٢٨٠٧).

(٥) رواه الترمذي برقم (٢٠٢٢).

واعلـم بـأن الـشباب منـسلخ عنـــك ومـا وزره بمنـسلخ
مـن لا يعـز الـشيوخ لا بلغـت يومـــا بـه سـنه إلى الـشيخ

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥] أي: المتقدمون المتناهون السابقون والمتأخرون اللاحقون، وعدهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ ابن عامر (وكلٌ) بالرفع وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام.

الباقون «وكلاً» بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه. أي: وعد الله كلا الحسنى. ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وعده)[١].

قال ابن حزم ﵀: (الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فثبت أن جميعهم من أهل الجنة، وأنه لا يدخل أحد منهم النار؛ لأنهم المخاطبون بالآية الأولى التي أثبتت لكل منهم الحسنى وهي الجنة، ولا يُتوهم أن التقييد بالإنفاق أو القتال فيها وبالإحسان في الذين اتبعوهم بإحسان يخرج من لم يتصف بذلك منهم؛ لأن تلك القيود خرجت مخرج الغالب فلا مفهوم لها، على أن المراد من اتصف بذلك ولو بالقوة أو العزم)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق كلامه عن الطلقاء: (وهؤلاء المذكورون دخلوا في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤٠-٢٤١).
(٢) الصواعق المحرقة (٢/ ٦٠٩).

ﭐلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الحديد: ١٠] فإن هؤلاء الطلقاء مسلمة الفتح هم ممن انفق من بعد الفتح وقاتل، وقد وعدهم الله الحسنى؛ فإنهم أنفقوا بحنين والطائف وقاتلوا فيهما ﷺ. وهم أيضاً داخلون فيمن ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾)[1].

فيا ليت شعري ماذا بقي لأولئك الذين ما زالوا يتخبطون ويعمهون ولا يرعوون بعد ذكر هذه الآيات الواضحات والتي هي في دلا لتها على فوز الآل والأصحاب بالجنة والرضوان ناصعات، ومن لم يكفه القرآن ويشفيه فلا كفاه الله ولا شافاه.

واعلم أخي القارئ! أنني تعمدت في هذا البحث أن تكون مناقب الآل والأصحاب من القرآن فقط؛ لكون القرآن كتاب هداية لا كتاب جدل، ولكون المخالفين يزعمون الانصياع لأحكامه والاستجابة لأوامره، فها هو الآن بين أيديهم يخاطبهم ويحثهم ويعلمهم ويرشدهم، فهل يا تُرى يستجيبون أم على أعقابهم ينكصون، وإلى ما هم عليه من الغواية يركنون، فالويل لمن قامت عليه الحجة وظهرت له المحجة، فعدل عنها واطمأن إلى غيرها!!

فبأي وجه يلقى الله؟ وبأي جواب يجيب مولاه إذا وقف بين يديه فنظر عن يمينه فلم يجد إلا النار، ونظر عن شماله فلم يجد إلا النار، ونظر بين يديه فلم ير إلا ما قدم؟!

وقد أطلت في نقل تفسير هذه الآية؛ لأن كثيراً من الغواة يرون أن القدح في مسلمة الفتح شيء هين، فأردت أن يعلموا أن لهم مقاماً في الإسلام لم يبلغه هؤلاء القادحون ولا آباؤهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥٩).

شهادة الآل بفضائل الأصحاب

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: فينا والله أهل بدرٍ نزلت[(١)].

وعنه رضي الله عنه أيضاً: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة ممن قال الله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر: ٤٧][(٢)].

يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[المائدة: ٥٤]. قال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه[(٣)].

يقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣]. قال علي بن أبي طالب وأبو العالية والكلبي: (والذي جاء بالصدق) يعني رسول الله (وصدق به) أبو بكر[(٤)].

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الآية في أبي بكر الصديق أسلم أبواه جميعاً[(٥)].

يقول الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد:١٠]. قال

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٨٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي (٢/ ٤٥).

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٧٩).

(٥) المصدر السابق (٤/ ١٦٧)، تفسير القرطبي (١٦/ ١٩٤).

علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبي ﷺ، وثنى أبو بكر، وثلث عمر، فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفتري ثمانين جلدة، وطرح الشهادة [١].

يقول الله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ [الليل: ١٧]. أي: يبعد عنها التقي الخائف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أبو بكر رضي الله عنه [٢].

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وغيره أنه قال في تفسير هذه الآية: الشاكرون الثابتون على دينهم: أبو بكر وأصحابه. وكان يقول: أبو بكر أمين الشاكرين [٣].

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٩]. حكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف ملك في الميسرة وأنا فيها [٤].

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤٠).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (٢٠ / ٣٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ١١١).

(٤)المحرر الوجيز (٢ / ٥٧٨).

قال الضحاك: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت حديثا من رسول الله ﷺ نفعني الله به ما شاء، وإذا سمعته من غيره حلفته، حدثني أبو بكر الصديق وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ: ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله تعالى إلا غفر الله له وتلا هذه الآية ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ [النساء: ١١٠] الآية. صدق أبو بكر رضي الله عنه[١].

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى:٢٣] (ومن يقترف حسنة) عن السدي أنها المودة في آل رسول اللهّ ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق ومودته فيهم[٢].

أخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله وخرج أبو بكر رضي الله عنه معه لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار[٣].

عن أُبيّ بن كعب قال: قرأت على رسول اللهّ ﷺ والعصر فقلت: بأبي وأُمّي يا رسول اللهّ وما تفسيرها؟ فقال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ قسمٌ من اللهّ أقسم لكم بآخر النهار. ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾قال: أبو جهل بن هشام. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أبو بكر الصديق ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ عمر بن الخطّاب ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ عثمان بن عفّان ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ علي بن أبي طالب.

وأخبرنا عبد الخالق بن علي قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن يوسف بن حاتم بن نضر قال: حدّثنا الحسن بن عثمان قال: حدّثنا أبو هشام محمد بن يزيد بن رفاعة قال: حدّثنا

---

(١) بحر العلوم (١ / ٣٦٢)، تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٠).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٢٢٥)، تفسير النسفي (٤/ ١٠١).

(٣)الدر المنثور (٤ / ١٩٩).

عمّي علي بن رفاعة عن أبيه رفاعة قال: حججت فوافيت علي بن عبد اللهّ بن عباس يخطب على منبر رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ أبو جهل ابن هشام ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أبو بكر الصديق ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ عمر بن الخطّاب ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ عثمان بن عفّان ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ علي بن أبي طالب[١].

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أعظم الناس أجراً في المصاحف: أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين[٢].

عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: حدثني علي بن محمد بن علي الرضا عن أبيه، عن آبائه، عن الحسن بن علي عليهما السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أبا بكر مني بمنزلة السمع، وإن عمر مني بمنزلة البصر، وإن عثمان مني بمنزلة الفؤاد). قال: فلما كان من الغد دخلت عليه وعنده أمير المؤمنين عليه السلام، وأبو بكر، وعمر، وعثمان فقلت له: يا أبت! سمعتك تقول في أصحابك هؤلاء قولاً، فما هو؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (نعم)، ثم أشار بيده إليهم، فقال: هم السمع والبصر والفؤاد)[٣].

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٨٠)، الكشف والبيان (١٠/ ٢٨٤).

(٢) كتاب المصاحف لابن أبي داود (ص٤٩)، تاريخ دمشق (٣٠/ ٣٨١).

(٣) انظر: عيون أخبار الرضا (٢/ ٢٨٠)، معاني الأخبار (ص٣٨٧)، بحار الأنوار (٣٠/ ١٨٠).

الخاتمـــة

في نهاية المطاف وبعد سرد هذه الآيات والأقوال لا يسع كل مسلم إلا أن يسلم ويؤمن ويذعن لقول رب العالمين، ويسير على مذهب السلف مذهب أهل السنة والجماعة الذين يعرفون حق الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ من الآل والأصحاب، ويأخذون بفضائلهم، فيكفيهم في الفضل أن الله أثنى عليهم ورضي عنهم ووعدهم الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

فمذهب أهل السنة تجاه الآل والأصحاب هو سلامة قلوبهم وألسنتهم، ومحبتهم إياهم، والترضي عنهم جميعاً، وإظهار محاسنهم، والإمساك عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم، واعتقاد أنهم في ذلك بين أمرين: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، فالمصيب له أجران، والمخطئ له أجر الاجتهاد، وخطئوه مغفور، وإذا قدر أن لبعضهم سيئات وقعت عن غير اجتهاد فلهم من الحسنات ما يغمرها ويمحوها، وليس في بيان خطأ من أخطأ منهم في الأحكام شيء من إظهار المساوئ، بل ذلك مما يفرضه الواجب، ويوجبه النصح للأمة، فأهل السنة في ذلك وسط بين الروافض الذين يغالون في دعواهم محبة آل

البيت وبغضهم لصحابة رسول الله ﷺ، بل إنهم يكفرون جميع الصحابة سوى بضعة نفر، فأهل السنة وسط بين هؤلاء وبين النواصب الذين ناصبوا آل البيت العداء، فيعرفون- أي: أهل السنة- للآل والأصحاب فضلهم، ويضعونهم حيث وضعهم الله، وهذا هو منهج الوسطية والاعتدال، والمعتقد الحق، وذلك للأمور التالية:

أولاً: أن الأدلة القرآنية - كما مر ذكرها - تسند هذا المعتقد، فهي واضحة بينة في دلالاتها على فضل وخيرية آل بيت رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم.

ثانياً: أن جمهور الأمة الإسلامية على هذا المعتقد وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وآل بيته الكرام ﵃، ومن خالف هذا المعتقد فقد ناصبه العلماء من أهل بيت رسول الله ﷺ - وغيرهم من علماء الأمة- العداء، وبينوا فداحة جرمه، وسوء معتقده ومذهبه، والأدلة على هذا الأمر أكثر من أن تحصر، ونكتفي بإيراد هذه الأمثلة:

١. ما ذكره أبو إسحاق الفزاري عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن زيد بن وهب: أن سويد بن غفلة دخل على علي في إمارته، فقال: إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر، يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، منهم عبد الله بن سبأ -وكان عبد الله بن سبأ أول من أظهر ذلك- فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود. ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن والجميل. ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبدًا. ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس -فذكر القصة في ثنائه على أبي وعمر ﵄ بطولها- وفي آخرها: ألا ولا يبلغني عن أحد يفضّلني عليهما إلا جلدته حد المفتري[1].

٢. قيل لجعفر الصادق ؒ: ما تقول في العشَرة من الصحابة؟ قال: أقول فيهم الخير

(١) لسان الميزان (٣/ ٢٨٩)، وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٠٠- ١٠١).

الجميل، الذي يحط الله به سيئاتي، ويرفع به درجاتي. فقال السائل: الحمد لله على ما أنقذتني من بغضك، كنت أظنك رافضياً يبغض الصحابة[1].

أما ما ينقل عن غيرهم من العلماء فأكثر من أن يحصر، وإنما نقلنا عن آل البيت عليهم من الله أبلغ الرضوان؛ حتى يقتدي بهم المتشيع لهم في ذلك.

٣. سألت امرأة جعفر الصادق ﷺ عن أبي بكر وعمر ـ فقال لها: تولّيهما. قالت: فأقول لربي إذا لقيتُه: إنك أمرتني بولايتهما؟ قال: نعم[2].

فالآل والأصحاب كانوا يعرفون للسابقين منهم حقهم ومكانتهم، ولم يكن فيهم منتقص لأحد منهم أو رافع له فوق قدره، فاللهم ارض عنهم واجمعنا بهم في جنتك بجوار نبيك صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

---

(١) تفسير الإمام حسن العسكري لابن بابويه (ص٣٥٥).

(٢) الروضة من الكافي (٨/ ١٠١).

فهرس المحتويات